المؤتمر القرآني الدولي الثاني
في هدايات القرآن الكريم

تعظيم الله تعالى في هدايات القرآن الكريم

تنظيم جامعة أفريقيا العالمية بالشراكة مع كرسي الهدايات القرآنية بجامعة أم القرى

عنوان البحث

تكامل منهج القرآن في الجمع بين المعرفة والسلوك لتحقيق مقاصد التعظيم

اسم الباحث

أ / خالد بن محمد محيي الدين حمودة

خالد بن محمّد بن محيي الدّين حمودة

تكامل منهج القرآن

في الجمع بين المعرفة والسلوك لتحقيق مقصد التعظيم

مقدمة

إذا كنَّا نريد رسم منهج ناجع في دعوة الناس إلىٰ تحقيق تعظيم الله -تبارك وتعالىٰ- حقَّ التعظيم، فإن الطريق السالكة -المضمونة النتائج والآمنة العواقب- هي النظر في أسلوب القرآن ومنهجه في الدعوة إلىٰ هذا المقصد الجليل، فإنه ما مِن مطلب من المطالب العظيمة التي يحتاج إليها الناس في صلاحهم واستقامتهم إلا وفي كتاب الله -تعالىٰ- البيانُ الشافي له من جميع الوجوه المحتاج إليها، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩]، وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت:٥١][1].

ومن خلال توظيف خاصية «**التركيب المزدوج للنص**»[2] التي تقضي بأن مضمون كل نص يناسب الأسلوب المستعمل لإنتاجه وأدائه، ننظر في تعظيم الله ﷻ: هل أمر به القرآن كما يُؤمر بالوظائف التعبدية، أو دلَّلَ عليه كما يُدلَّلُ علىٰ المعارف العلمية، أو زرعه كما تُزرع الوجدانيات؟ وبالجواب عن هذا السؤال يتَّحدد لنا التعظيم، هل هو وجدان وشعور، أو حقيقة علمية معرفية، أو هو سلوك وممارسة عملية[3]؟

إذا قمنا بهذا النظر بطريقة صحيحة وأجبنا عن هذين السؤالين فإننا سنحصل علىٰ نتيجتين متلازمتين:

النتيجة الأولىٰ: ماهية التعظيم.

النتيجة الثاني: طريقة الدعوة إليه.

---

(١) هذا التقرير مبني علىٰ أصل عظيم مهم، وهو الاكتفاء بالرسالة والاستغناء بها، وأن فيها البيان لما يحتاج إليه الخلق، وقد عُني ابن تيمية / كثيرا بتقرير هذا الأصل والاستدلال عليه، ومن ذلك الفصْلُ المختصر النافع المُسمَّىٰ: «قاعدة في الاكتفاء بالرسالة والاستغناء بالنبي ﷺ عن اتباع من سواه اتباعا عاما»، وهو في مجلَّد الاتباع من «مجموع الفتاوىٰ» (١٩/ ٦٦-٧٥)، وقد استدل فيه لهذا الأصل بسبعة أنواع من أدلة القرآن.

(٢) هذه الخاصية أو المقدمة مهمة جدا في التعامل مع النصوص فهما وتقويما ونقدا، راجع تأصيلَ استعمالها في هذا المجال في كتاب: «تجديد المنهج في تقويم التراث» للدكتور طه عبد الرحمن (ص: ٢٣-٢٤، ٨١).

(٣) قارن بما قاله رُوْيْس في كتابه «الجانب الديني للفلسفة» (ص: ٣١-٣٢) حيث جعل هذه الثلاثة: الجانب العملي والوجداني والنظري، هي الأجزاء التي يتكوَّن منها كلُّ دين من الأديان.

ووجه تلازمهما أن ما عُرفت ماهيته عُرفت الطريق الموصلة إليه.

مقصد العظمة في القرآن

جاء ذكر اسم الله: «العظيم» ستَّ مرات في القرآن، أولها وأَجْلَاها وأعلاها خاتمة آية الكرسي، بعد ذكر صفات الجلال والجمال التي اتصف بها الرب سبحانه وهي خمس وعشرون صفة، خُتمت بقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾، وهي خاتمة كالخلاصة لما اشتملت عليه الآية، فكل ما ورد فيها من الأسماء والصفات والنعوت هو من وجوه عظمة الله سبحانه، ولهذا كانت هذه الآية أعظم آية في القرآن، قال النبي ﷺ لأبي بن كعب رضي الله عنه: «**أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم**»؟ قال: قلت: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، قال: فضرب في صدري وقال: «**والله ليهنك العلم أبا المنذر**»[1]، وفي هذا إشعارٌ قوي بأن من أجل مقاصدِ القرآن تحقيق تعظيم الله تعالىٰ.

ومعلوم أن ما كان هذا شأنه فإن المنتظر أن يكثر وروده ووُرود مشتقاته في القرآن، كالمصدر (العظمة)، والفعل (عَظُم، عظِّموا)، كما هو الحال في لفظ «الإيمان» مثلا، حيث جاء تكريره مرات كثيرة وبأوجه متنوعة، تارة بذكر فضائل الإيمان، وتارة بالأمر به، وتارة في الوعيد علىٰ تركه، وغير ذلك، لكن الأمر بخلاف ذلك، فمادة التعظيم قليلة الوُرود، والسبب في هذا –والله أعلم– أن الإيمان حقيقة واحدة ذات أركان وأجزاء محدودة ومعلومة، أما التعظيم فليس شيئا واحدا مُعَيَّنا يُدعَىٰ إليه بعينه، وإنما هو مجموعةٌ من المعارف والاعتقادات الَّتي يجمعها مدلول اسم الله: «العظيم»، إِذْ معناه: «من اتَّصف بصفات كثيرة من صفات الكمال»[2]، وهو في قلة وروده في القرآن مثل غيره من الأسماء الجامعة[3] كالمجيد والصَّمد، لم يأت ذكرها في القرآن إلَّا في مواطن معدودة، والذي جاء هو ذكر أفرادها تفصيلًا، أي ذكرُ وجوه عظمة الله –تبارك وتعالىٰ–، لأنه معنىٰ كلي يحصل من اجتماع أفراد كثيرة وتفاصيل متنوعة، وهذا كله يدل علىٰ أن التعظيم مَقْصِدٌ بثَّه القرآنُ متغلغلا في أثناء آيات التعريف بالله وبدلائل علمه وقدرته في الكون وفي الأنفس.

لكنه مع ذلك ليس معرفة مجردة، فالعلم وحده لا يكفي في تحقُّق القلب بهذا المقصد،

---

(١) رواه مسلم، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي، رقم (٨١٠).

(٢) بدائع الفوائد: لابن قيم الجوزية (١/ ٢٨٢).

(٣) هي التي تجمع معاني كثيرة، انظر: بدائع الفوائد (١/ ٢٨١، ٢٩٦-٢٩٧).

وليس كلُّ من عرف الله تعالىٰ بأسمائه وصفاته وعرف دلائل كماله وجلاله عظَّمه التعظيم المطلوب، والدليل علىٰ ذلك أمران:

الأول: حصولُ المعرفة لمن لا تعظيم عنده، مثل إبليس الذي كان مع الملائكة، وقد شاهد من علم الله وقدرته وجلالِه، ومع ذلك عصاه وتمرَّد علىٰ طاعته.

الثَّاني: أن بعض العامة من الأعاجم وغيرهم، مع نقص معرفتهم التفصيليَّة بالله تعالىٰ، إلا أنهم يُعظِّمون الله ودينه وأنبياءه تعظيمًا أكثرَ من كثيرٍ من المنتسبين للعلم، لأن معرفتهم المجملة بالله تعالىٰ وقرت في القلوب علىٰ جهة اليقين الجازم والاعتقاد الراسخ، فأثمرت إجلالًا لله ومهابةً وتعظيمًا، وفي هذا المعنىٰ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «فأما قول القلب فهو التصديق الجازم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويدخل فيه الإيمان بكل ما جاء به الرسول ﷺ ... وهذا التصديق يتبعه عمل القلب، وهو:

حب الله ورسوله.

وتعظيم الله ورسوله.

وتعزير الرسول وتوقيره.

وخشية الله والإنابة إليه.

والإخلاص له.

والتوكل عليه.

إلىٰ غير ذلك من الأحوال، فهذه الأعمال القلبية كلها من الإيمان، **وهي مما يوجبها التصديق والاعتقاد إيجابَ العلَّة للمعلول**»[1].

فقد بيَّن أن تعظيم الله ورسوله من عمل القلب.

وعملُ القلب يتبع قول القلب الَّذي هو الاعتقاد والتصديق.

وقد جاء التصريح بهذا في قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الحج].

وعلىٰ هذا فإن الدعوة إلىٰ التعظيم ينبغي أن تكون سالكة في هذين الاتجاهين: تحصيل المعرفة الصحيحة في القلب واستدعاء أثرها بالسلوك المصلح للقلب.

وبناء علىٰ هذا جاء منهج القرآن في الدعوة إلىٰ التعظيم جامعا بين الدعوة إليه علمًا

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٧/ ٦٧٢)، وله مثلُ هذا الكلام في: شرح الأصبهانية (ص: ١٩٤).

ومعرفة، وبين تحقيقه سلوكًا وعملًا، وجمعه بينهما واقع علىٰ وجه التداخل والتفاعل لا علىٰ جهة الفصل بينهما، وفيما يلي محاولة للكشف عن معالم هذين المسلكين.

أ-المعرفة

ما تقدمت الإشارة إليه من تعظيم كثير من العامة لله ﷻ يدل علىٰ أن العلم المطلوب في حصول تعظيم الله –تعالىٰ– ليس هو العلم التفصيلي، بل المعرفة المجملة التي يصح بها إيمان العبد، إذا وقرت في القلب حقا اقتضت تعظيم الله ﷻ، وكلما زادت المعرفة التفصيلية اليقينية المورثة للعمل المقتضية للامتثال كلَّما كان التعظيم أشد، وفي هذا يقول ابن القيم رحمه الله: «ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة التعظيم، وهذه المنزلة تابعة للمعرفة، فعلىٰ قدر المعرفة يكون تعظيم الربِّ تعالىٰ في القلب، وأعرف الناس به أشدُّهم له تعظيما وإجلالا»[1].

وقد جاء المنهج القرآني في تقرير عظمة الله تعالىٰ مزاوجًا بين الحفظ من جانبي الوجود والعدم، وأعني بجانب الوجود الإثباتات التي تحققه من الخبر والبرهان، وبجانب العدم دفع ما ينقض التعظيم أو ينقصه من جهة الخبر والنهي.

أ.١: تحقيق التعظيم-معرفةً- من جانب الوجود:

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ [سورة نوح].

الدعوة إلىٰ تعظيم الله تعالىٰ في القرآن من هذا الوجه ترجع إلىٰ مسلكين:

الأول: التعريف بأسماء جلاله ونعوت كماله من خلال آياته المتلوة.

الثاني: التنبيه علىٰ آيات قدرته وعلمه من خلال آياته المرئية.

فالأول هو الذي قال الله تعالىٰ فيه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [سورة الفرقان].

والثاني هو الذي قال فيه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [سورة الملك].

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، دار الفكر، تحقيق محمد حامد الفقي، (٢/ ٤٩٥).

ومعنىٰ تبارك: تعالىٰ وتعاظم[1]، فهي تعظيم وتمجيد لله ﷻ، وقد افتُتحت بها في القرآن هاتان السورتان، وهما سورة الفرقان وسورة الملك، تنبيهًا علىٰ تعظيم الله تعالىٰ بالنوعين: آياته المتلوة وآياته المرئية، وقد اجتمع التنبيه عليهما وعلىٰ دلالتهما علىٰ تعظيم الله في قوله سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤].

وسأتكلم هنا عن دلالة الآيات المرئية، وأترك دلالة الآيات المتلوة مضمنا في الكلام علىٰ السلوك لشدة تعلقه به.

جاء في القرآن التصريح بالدعوة إلىٰ التعظيم من خلال التأمل في آيات الله الدالة علىٰ عظمته وجلاله، قال الله تعالىٰ: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [سورة نوح] الآيات، فقد ذكر الله تعالىٰ عن نوح عليه السلام أنه أنكر علىٰ قومه أنهم لا يعظمون الله تعالىٰ، فالوَقَارُ هو التَّعظيم، ولهذا قال ابن عَبَّاس رضي الله عنهما في تفسيرها: «لا تعظمون الله حقَّ عظمته»[2]، وقال مجاهد: «كانوا لا يبالون عَظمَة الله»[3]، ثم احتج عليهم بالآيات الدالة علىٰ عظمته سبحانه المقتضية لتوقيره وإجلاله.

من خلال التأمل في أسلوب القرآن في عرض هذه الآيات نجد أنه تميز بميزاتٍ ثلاثة، رُوعِي فيها أحوال النفس البشرية من حيث الملاءَمَة والتأثير، وذلك من أجل إشباعها بالمعرفة اليقينية الراسخة، وهذه الميزات هي كما يأتي:

الميزة الأولى: المكاثرة

والمراد كثرة الآيات وتنوعها، كالاستدلال وبالسماء والأرض والليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والشجر والجبال والدواب والفلك والبحر والأنهار والنبات والماء والنار والسحاب والمطر والبرق والرعد واختلاف الألسن والألوان والأنواع وخلق الأزواج ومراحل خلق الإنسان وتفاوت الأرزاق وقبض الأرواح وغير ذلك.

وكل واحدة من هذه الآيات فيها وجوهٌ من الاعتبار، وأنواعٌ من دلائل الاقتدار.

---

(١) راجع أقوال المفسرين في هذه الكلمة في: التفسير البسيط، للواحدي (٩/ ١٧٧).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٣/ ٢٩٦) من عدة أوجه عن ابن عباس بمعناه، وروي نحوه عن عدد من السلف. انظر: «موسوعة التفسير المأثور» (٢٢/ ٢٦٥).

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٣/ ٢٩٥).

وهذه الكثرة تتضمن تعاضد الآياتِ علىٰ إثباتِ المقْصِد.

كما أنها اعتضدت أيضا بالآيات المتلوة، وهي القرآن المعجِز الذي ضمَّنَه الله تعالىٰ عِلْمَه كما قال سبحانه: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦]، فجاء صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأحكام، تامٌّ لا سبيل إلىٰ الاستدراك عليه في حُكْمٍ ولا خَبَر، وضَمِن مع ذلك حفظه من التبديل والتغيير، وأخبر أنه محكم ليس فيه اختلاف ولا تناقض، وتحدىٰ الجن والإنس أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله[1].

الميزة الثانية: التقريب

فالآيات التي المرئية والمسموعة التي تقدمت كلها قريبة من الإنسان لصيقة بحياته، ففي كل شيء حولَه آياتُ الله الدالة علىٰ عِلمه وقدرته ووَحدانيته، فلا فرق في مشاهدة آيات الله بين أعرابي في البادية وحاضر في المدينة، ولا بين قارئ وغير قارئ، بل الجميع يشتركون في تأملها ومعرفة ما فيها من بديع الصنعة وجليل القدرة، «لأن طريقة القرآن لتكوين العقيدة وتثبيتها هي مخاطبة الفطرة البشرية بما هو في متناول كلِّ فردٍ من المواد الأولية، إذ من هذه المشاهدات التي يراها الإنسان يبني القرآن العقيدة»[2].

ولنأخذ مثالا واحدا علىٰ ذلك وهو في آخر سورة الواقعة حيث استدل سبحانه وتعالىٰ بخلق الإنسان فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ثم ذكر الماء والزرع والنار، وهي التي يحتاج إليها الإنسان ويستعملها في كل أحواله، وهي قوام معيشته، وشرطُ استمرار حياته، ولذلك قال النبي ﷺ: «المسلمون شركاء في ثلاث: في الكلأ، والماء، والنار»[3]، فتسخير هذه الثلاثة وتسهيلُها لجميع الناس مع شدة حاجتهم إليها وعجزهم عن استرجاع ما عُدِم منها أو فَسَد، دليلٌ علىٰ عظمة الله -تبارك وتعالىٰ- وجلاله وقدرته، ولهذا ختم سبحانه هذه الآيات بقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾، فهذه أمور ملامسة لحياة كل إنسان وهو محتاج إليها في جميع أوقاته وحالاته، ويكفي أن يتأمل في حاجته إليها وعجزه عن توفيرها -لولا تسخير الله- ليعلم أنها من العظيم الحليم الذي سخر الكون للإنسان وأحكمه وهيَّأه لحياة الإنسان وراحته، ولذلك يسميه علماء التوحيد في كلامهم عن

---

(١) هذا كله غيرُ ما التزمت تأخيره من دلالة الآيات المتلوة علىٰ تعظيم الله عن طريق التعريف بصفاته وأسمائه، بل هي دلالة من وجه آخر، وهي كونه آية مُعجِزة بألفاظه ومعانيه.

(٢) منهج القرآن في الدعوة إلىٰ الإيمان -رسالة ماجستير-، د. علي بن ناصر فقيهي، (ص: ٦١).

(٣) أخرجه أبو داود، باب في منع الماء، برقم: (٣٤٧٧).

أدلة وجود الخالق: «**دليل العناية**»[1]، فما ذكروه من الآيات في هذا الدليل تتصف بكونها قريبة من الإنسان وملازمة له، بحيث لا تستقر حياته وتنتظم إلا بها.

وهذا النوع من الأدلة القريبة هو الأكثر في القرآن، وهو الذي استدل به نوح علىٰ قومه، ولذلك فإن أبا الشَّيخ الاصبهاني لما صنف في كتاب «العظمة» عقد الباب الأول في الحث علىٰ التفكر في آيات الله، ثم الباب الثاني مباشرة في: «ذكر نوع من التفكر في عظمة الله ووحدانيته وحكمته وتدبيره وسلطانه»[2]، وقد دل ما ذكره فيه من وظائف الأعضاء وتسخير الكون علىٰ أنه أراد هذا النوع من الأدلة.

أما الدلالة الخفية التي يختص بها العلماء ويمتازون عن عامة الناس بالتوسُّع في دلالتها وأسرارها، فقد جاءت الإشارة إليها في القرآن مجملة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[فصلت:٥٣].

الميزة الثالثة: التكرار

الآيات التي تدل علىٰ عظمة الله وقدرته ملازمة للإنسان قريبةٌ منه، وهذا فيه التقريب الذي سبق في الميزة الثانية، وفيه أيضًا التكرار، وهي من حيث تكررها علىٰ الإنسان وعودُها علىٰ إدراكاته نوعان:

النوع الأول: ما يلازمه ويراه من حوله في كل وقت، كلما رفع رأسه أو التفت رآها، مثل السماء والأرض والدواب.

وهذا النوع من الآيات تأثيره عن طريق «**التركيز المستمر**».

النوع الثاني: ما يذهب ويجيء مثل الليل والنهار والشمس والقمر والنوم والاستيقاظ، والموت والحياة، فهذه الأشياء كلما تكررت أورَثَت في القلب معرفةً مستقرَّةً لا تفارقه، وليس هذا مثل الشيء الذي يتذكره الإنسان من حين إلىٰ آخر، فإنه قد يغفل عنه، وقد يذهب من القلب ذكرُه وتأثيرُه، فلا يفتأ الإنسان وهو يتقلب في ليله ونهاره يرىٰ آيات الله تعالىٰ في نفسِه وفيما حولَه.

ومن هنا شرع للإنسان إحداث بعض العبادات والأوراد عند حدوث هذه الآيات:

---

(١) راجع تقرير مختصرا عن مظاهر العناية في الآيات الكونية ودلالتها علىٰ وجود الخالق في كتاب: منهج القرآن في الدعوة إلىٰ الإيمان، مرجع سابق، (٨١-٨٨).

(٢) كتاب العظمة (١/ ٢٧١-٢٨٧).

فمن العبادات الصلوات الخمس التي ارتبطت بطلوع الشمس وزوالها وغروبها، كما قال تعالىٰ: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودًا ﴿٧٨﴾﴾[سورة الإسراء].

ومن الأوراد ركوب الدواب والفلك المسخرة قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾[سورة الزخرف]، وكان النبي ﷺ يستغل بعض هذه الحوادث لتذكير الناس بعظمة الله وقدرته، ومن امثلة ذلك ما رواه زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال: صلَّىٰ بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في إثر سماء[1] كانت من اللَّيل، فلمَّا انصرَف أقبل علىٰ الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مُطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب»[2].

وتشريع هذه العبادات والأوراد عن حدوث الآيات فيه تنبيه وتذكير بدلالتها علىٰ عظمة الله وقدرته من جهة، وعلىٰ آلائه ورحمته وإنعامِه من جهة ثانية، وفي قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا دلالة صريحة علىٰ الأمرين: التفكر والشكر، فالتفكر يورث التعظيم، والشكر يورث المحبة، وبذلك تتحقق العبودية لله ﷻ محبةً وتعظيمًا.

ودلالة هذا النوع من الآيات عن طريق «**التركيز المتقطِّع**»، ذي التأثير العميق الذي هو كتأثير تتابع قطرات الماء علىٰ مكان واحد من الأرض، وهو الحكمة المتوخاة من نزول القرآن مُنَجَّمًا علىٰ رسول الله ﷺ، قال الله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الفرقان].

---

(١) أي: إثر مَطَرٍ.

(٢) أخرجه البخاري، باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم، برقم: (٨٤٦)، وباب قول الله تعالىٰ: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾ برقم: (١٠٣٨)، ومسلم، باب بيان كفر من قال: مطرنا بالنوء، برقم: (٨٤٦).

أ.٢: حفظ التعظيم -معرفةً- من جانب العدم:

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١].

مقتضىٰ عظمة الله وجلاله تنزُّهه عن صفات النقص، ولذلك أمر سبحانه بالجمع بين تنزيهه وتعظيمه فقال في ثلاثة مواضع من القرآن: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة:٧٤]، [الواقعة:٩٦]، [الحاقة:٥١]، وقد كان النبي ﷺ يكرر في ركوعه وسجوده: سبحان ربي العظيم، ممتثلًا هذه الآيات الكريمات، فيجمع بين التعظيم بالقلب والقول والفعل.

ونسبةُ صفات النقص إلىٰ الله تعالىٰ تنافي تعظيمه، ولهذا أنكر سبحانه علىٰ مَن نسب إليه ما لا يليق بعظمته، فقال جل شأنه: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾[الأنعام: ٩١]، قال أبو مالك الغفاري ومقاتل بن سليمان ويحيىٰ بن الضريس: «ما عظموا الله حق عظمته»[(١)]، زاد مقاتل: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾: يقول: «علىٰ رسولٍ من كتاب، فما عظَّموه حين كذَّبوا بأنه لم ينزل كتابا علىٰ الرسل»[(٢)]، لأن خَلْق الخلق وتركَهم سُدًىٰ وهملًا لا يُؤمرون ولا يُنهَون ولا يُتعبدون بالشرائع ولا تُرسل إليهم الرسل، عَبثٌ يتنزَّه الله تعالىٰ عنه، وهو من ظن السوء به سبحانه، قال ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾[سورة ص].

لكن هنا ملحظا لا بد من مراعاته عند تنزيه الله عن النقائص، وهو أن لمناسب لعظمة الله وجلاله هو النزيه والنفي المجمل الذي لا يخدش التَّعظيم، ولهذا كان طريقة القرآن في تنزيه سبحانه، قال ابن تيمية رحمه الله: «فالله سبحانه بعث الرسل بما يقتضي الكمال من إثبات أسمائه وصفاته علىٰ وجه التفصيل، والنفي علىٰ طريق الإجمال للنقص والتمثيل»[(٣)]، وقد بيَّن ابنُ أبي العز الحنفي حكمة ذلك بقوله: «النفي المجرد مع كونه لا مدح فيه، فيه إساءة أدب، فإنك لو قلت للسلطان: أنت لست بزبال ولا كسَّاح ولا حجَّام ولا حائك! لأدبَّك علىٰ هذا الوصف وإن كنت صادقا، وإنما تكون مادحًا إذا أجملت النفي فقلت: أنت لست

---

(١) انظر: «موسوعة التفسير المأثور» (٨/ ٤٧٨).

(٢) المصدر السابق.

(٣) منهاج السنة النبوية، تحقيق رشاد محمد سالم، (٢/ ١٥٦-١٥٧).

مثل أحد من رعيتك، أنت أعلىٰ منهم وأشرف وأجل، فإذا أجملت في النفي أجملت في الأدب»[1].

فكمال التعظيم لله تعالىٰ يقتضي التأدب معه حتىٰ في نفي النقائص، لأن من طبيع النفس البشرية أن النقص إن ذكر ولو منفيا فإنه يخدش مقام العظمة، فلذلك كان من تعظيم الله جل جلاله التأدب في وصفه والإخبار عنه إثباتا ونفيًا.

ب-السلوك

المقصود بالسلوك تزكية النفس وأداء الوظائف الدينية.

والسلوك وإن كان في الأصل أثرا للمعرفة اليقينية لكنه في نفس الأمر يُنَمِّيها ويقويها ويدعمها، لأن من خصائص الإيمان بالله ومعرفته أنه ليس معرفةً مجردة تخاطب العقل، بل معارف وجدانية تخاطب العقل والقلب معًا، وتستثير الإدراك والشعور في الوقت نفسه، ولهذا وصف الله كتابه الكريم بقوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾[الزمر: ٢٣].

ولهذا كان خطاب الإيمان والتعظيم لا يظهر أثره ولا تَنْتُج ثمرته إلا إذا صادف محلا صالحا ونفسًا زكية، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ٣٧﴾ [سورة ق]، أما من تجرد من جانب السلوك وقابلية المحل فلا ينفعه الخطاب القرآني والأسلوب الإيماني، كحال المنافقين الذين لا تزيدهم الآيات والبراهين إلا ضلالا، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَأَعۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ٤٤﴾ [فصلت: ٤٤].

ومن الأدلة الصريحة علىٰ ارتباط السلوك العملي بالتعظيم قول الله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ٣٢﴾ [سورة الحج]، وهذا إخبار عن أن تقوىٰ القلوب هي التي تثمر تعظيم شعائر الله تعالىٰ، فمن ليس له تقوىٰ ليس له تعظيم لله ولا لأوامره ونواهيه.

فالإيمان يدعو إلىٰ العمل ويصححه، والعمل يُكمِّل الإيمان ويحفظه، وهذه العلاقة التبادلية بينهما هي نفس العلاقة بين كل عمل ظاهر اقتضاه إيمان باطن، ولذلك يأتي طلب

(١) شرح العقيدة الطحاوية، مؤسسة الرسالة، تحقيق عبد الله التركي وشعيب الأرنؤوط، (١/ ٧٠).

هذا النوع من الوظائف تارة متوجها إلىٰ الإقناع بالإيمان، وتارة متوجها إلىٰ الأمر بتطبيق لوازمه.

والسلوك يحقق الإيمان ولوازمه كالمحبة والتَّعظيم من وجهين:

الوجه الأول: أن الخطاب بالإيمان ولوازمه خطاب وجداني، لا يتحقَّق معناه إلا مَنْ آمن به وعمل بمقتضاه، فليس هو كالعلم النظري التجريدي الذي نجده في فلسفة اليونان والعلوم الطبيعية التجريبية، فإن هذا العلم منفك عن العمل والسلوك ومباين له، بل هو مناقض له عند بعضهم[1]، أما العلم الشرعي الديني فلا يتحقق لصاحبه إلا باقتضاء آثاره، ولهذا فإن العالِمين حقيقة هم العاملون، والعلم بلا عمل كلا علم.

الوجه الثاني: زيادة المعرفة بتفاصيله وما اشتمل عليه من حكمة ومصلحة ومنفعة عاجلة وسعادة وراحة وموافقة للفطرة وسكون للنفس، وهذه معرفة عملية من خلال المباشرة والممارسة، وكل من مارس شيئا عرف منه ما لا يعرفه من لم يباشره ولم يمارسه.

وكما جاء ركن المعرفة من جانبي الوجود والعدم فكذلك السلوك، تحقيقه من جانب الإثبات بالوظائف الدينية المتضمنة له، وحفظه من جانب العدم بالنهي عما ينافيه وينقصه.

ب.١: تحقيق التعظيم -سلوكًا- من جانب الوجود:

﴿يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج:٣٢].

الوظائف الدينية كلها تعظيم لله، لكن أظهرها في تحقيق التعظيم وإظهاره ما كان من جنس الشعائر الظاهرة، فإنها شُرعت أساسًا لإظهار تعظيم الله ﷻ وتثبيته في النفوس، ولهذا قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج:٣٢]، ففي هذه الآية الحث علىٰ تعظيم شعائر الله، وبيان أن تعظيمها من تعظيم الله، وفيها الحث علىٰ استشعار مقاصد هذه الشعائر، والحرص علىٰ تحقيق ما تشتمل عليه من معاني تعظيم الله سبحانه.

والكلام عليها تفصيلا يطول، لكن لا بد من إشارات مختصرة إلىٰ بعض ما تضمَّنه:

١ -**الصلاة**:

وهي كلها تعظيم لله، ولذلك جُعل شعارها التكبير، فهي تُفتَتح بالتكبير، ويُنتقل فيها بالتكبير، ويرفع المصلي يديه إذا كبَّر تعظيمًا لله ولأمره، قال ابن عبد البر ﷺ: «معنىٰ رفع

---

(١) عن علاقة العلم بالعمل في الفلسفة اليونانية يُنظر كتاب: «سؤال العمل» للدكتور طه عبد الرحمن، لا سيما: الملحق الأول: كيف نجدد النظر في الصلة بين العلم والدين (ص: ٢٩٥).

اليدين عند الافتتاح وغيره خضوع واستكانة وابتهال وتعظيم لله تعالىٰ واتباع لسنة رسوله عليه السلام»[1].

وقال النبي ﷺ: «أما الركوع فعظّموا فيه الرب»[2].

وهيئة السجود فيها من الخضوع لجلال الله والتعظيم لشأنه ما لا يُوصف[3].

والتحية في آخرها تعظيم لله سبحانه: يقول المصلي: «التحيات لله»، أي: أنواع التعظيم والإجلال كلُّها له سبحانه[4].

٢-الحج:

في الحج من مظاهر تعظيم الله ﷻ شيء كثير جدا، فهو بما اشتمل عليه من عبادات جليلة قلبية وقولية وبدنية ومالية المدرسةُ الَّتي تغرس في النفوس تعظيمَ الله غرسًا، فقد جُعل شعاره التلبية، وهي إهلال بالتوحيد، وجهر بنفي الشرك والتنديد، وإقرار لله بالملك إذعان له بالتحميد، ويجتمع في يوم النحر منه -يوم الحج الأكبر- من أنواع العبادات ما لا يجتمع في غيره، ولهذا صحَّ عن النبي ﷺ أنه أفضل الأيام عند الله[5]، لأنه لا يُذكر الله ويُعظم في يوم كما يذكر ويُعظَّم في يوم النحر، ولهذا أمر الله تعالىٰ بتعظيم الشعائر التي تكون في الحج، فقال: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾[سورة الحج]، يعني بالحرمات ما ذكره من أمر المناسك كلها[6]، من يعظمها فهو خير له عند ربه.

وفي الآية الإشعار بما في الطواف من معاني التعظيم، ولهذا خصه الله بالذكر من بين سائر أعمال الحج، وأمر بتعظيمه، لأنَّه العبادة المختصَّة ببيت الله الَّذي جعله قيامًا للناس، وما شُرع إلَّا تعظيما لله وإجلالًا له.

---

(١) الاستذكار (٤/ ٩٧).

(٢) أخرجه مسلم، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود، برقم: (٤٧٩).

(٣) تكلم ابن القيم بكلام واسع محقق علىٰ ما في هيئات الصلاة وأقوالها من مقامات التعظيم لله وإجلاله، وذلك في كتابه: «الصلاة».

(٤) قال الخطابي في «أعلام الحديث» (١/ ٥٤٥): «التحيات لله، أي: الثناء علىٰ الله والتمجيد وأنواع التعظيم له كما يستحقه ويجب له».

(٥) رواه أبو داود في سننه، باب في الهدي إذا عطب قبل أن يبلغ، برقم: (١٧٦٥).

(٦) بهذا فسره مقاتل، ورجحه ابن القيم، وفسرها بعض السلف بالمعاصي، ولعله من باب التفسير بالمثال، وإلا فلفظ الآية أعم من ذلك، راجع: موسوعة التفسير بالمأثور (١٥/ ١١٤).

٣-**النحر**:

نحر الأضاحي والهدايا التي قال الله في شأنها، وفيها قال الله تعالىٰ: ﴿يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾، وقال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، وكان النبي ﷺ يستسْمِنُها ويستعظمها، وشرَع تقليدها وإشعارها، وساقها في حجه من المدينة، كل ذلك إظهار للتعظيم وإعلانا للتوحيد.

ومن تمام تعظيم الله في هذه العبادة الجليلة أن لا يؤكل إلا مما ذكر عليه اسم الله، ولا يجوز الأكل مما ذبح لغير الله أو ذكر عليه غير اسمه سبحانه، قال تعالىٰ: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [سورة الأنعام].

٤-**الذكر**:

وهو حياة القلوب، وبه صَقْلها وإزالة غشاوتها ورانها لتتهيأ لمعاني التعظيم والإجلال، والمراد من الذكر ما يشمل:

أ-التسبيح والتكبير والتهليل، وكلُّها تعظيم، وقد قال سبحانه: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾.

وقد جعل النبي ﷺ لأمته منها وردا يلازمونه في طرفي النهار، وفي أدبار الصلوات، وعند النوم.

ب-الدعاء، وقد كان النبي ﷺ يدعو الله بأنواع كثيرة من الأذكار والأدعية كلها مناجاة لله بأسماء جلاله ونعوت كماله، وفيها مقامات التوحيد وشهادة الإيمان ونور التعظيم ودلائل الاستكانة.

ج-تلاوة القرآن: وهي أعظم الذكر[(١)]، لا سيما قراءة آية الكرسي التي هي آية التعظيم، شرع النبي ﷺ لأمته قراءتها ثماني مرات في اليوم: خمسة في أدبار الصلوات[(٢)]، ومرة في الصباح، ومرة في المساء[(٣)]، ومرة عند النوم[(٤)]، فتكرار قراءتها مع فهم معانيها وتدبرها

---

(١) اعتنىٰ ابن القيم بالكلام علىٰ مراتب الذكر، راجع: الوابل الصيب، دار عالم الفوائد، تحقيق عبد الرحمن بن قائد (ص: ٢٣١).

(٢) قال رسول الله ﷺ: «من قرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت»، أخرجه النسائي في: السنن الكبرىٰ، ثواب من قرأ آية الكرسي دبُر كل صلاة، برقم: (١٠٠٣٨).

(٣) رواه الطبراني في: المعجم الكبير (١/ ٢١٠)، واختاره الضياء المقدسي في: الأحاديث المختارة (٤/ ٣٤)، رقم (١٢٦٠)، وصحح المحقق إسناده.

(٤) صحيح البخاري، باب فضل سورة البقرة، برقم: (٥٠١٠).

والتفكر في مضامينها له أثر كبير في تعظيم الله ﷻ.

وكذلك سائر آيات الصفات التي مدح الله بها نفسه وتعرف بها إلىٰ خلقه، مثل أوائل سورة الحديد، وأواخر سورة الحشر، وسورة الإخلاص وغيرها، فقراءة هذه الآيات وتدبرها يفتح علىٰ القلب أبوابًا جليلة من معرفة الله وتعظيمه، وقد كان النبي ﷺ يحرص عليها ويوصي بها ويعلمها للناس، كما رغب ﷺ في قراءة سورة الإخلاص، وأخبر أنها تعدل ثلث القرآن[1]، وتلا علىٰ المنبر قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]، فقال: «يأخذ الله ﷻ سماواته وأرضيه بيديه، فيقول: أنا الله -ويقبض أصابعه ويبسطها- أنا الملك، قال ابن عمر: «حتىٰ نظرت إلىٰ المنبر يتحرك من أسفل شيء منه، حتىٰ إني لأقول: أساقط هو برسول الله ﷺ»[2].

وقد اقتدىٰ به الأئمة في هذا المسلك، كما فعل هشام بن عمار لما بلغه أن أناسا ينسبونه إلىٰ اللفظية، فغضب وخطب خطبة أثنىٰ فيها علىٰ الله تعالىٰ، ووصفه بالآيات الستِّ من أول الحديد، قال الراوي: «وتلاها علينا وذكر من عظمة الله ما عجب منه السامعون من حسنه، ثم ذكر القرآن فقال: القرآن كلام الله وليس بمخلوق، ومن قال القرآن أو قدرة الله أو عزة الله مخلوقه فهو من الكافرين»[3].

ويلحق بآيات الصفات: الآياتُ التي أخبر الله بها عن أفعاله وأيَّامه التي أوقع فيها بأعدائه، ونصر أولياءه، فهذه أيضا مما أُمرنا بتدبره وتذكره، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥].

ب.٢: حفظ التعظيم -سلوكًا- من جانب العدم:

﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠].

---

(١) أخرجه البخاري، باب فضل قل هو الله أحد، برقم: (٥٠١٣)، ومسلم، باب فضل قراءة قل هو الله أحد، برقم: (٨١١).

(٢) أخرجه مسلم، باب كتاب صفة القيامة والجنة والنار، رقم: (٢٧٨٨)، وليس فيه أنه قرأ الآية، وإنما هو في: السنن الكبرىٰ، للنسائي (٧٦٤٨).

(٣) تاريخ مدينة دمشق، لابن عساكر (٣٢/ ٣٧٠-٣٧١).

إذا ثبت أن الطاعات تقوي تعظيم القلب لله فإن المعاصي تضعفه لا محالة، وقد ذكر ابن القيم رحمه الله هذا فيما ذكره من آثار الذنوب والمعاصي، وقال: «ومن عقوبات الذنوب أنها تضعف في القلب تعظيم الرب جل جلاله، وتضعف وقاره في قلب العبد ولا بدَّ، شاء أم أبىٰ، ولو تمكن وقار الله وعظمته في قلب العبد لما تجرأ علىٰ معاصيه».

ثم قال: «وربما اغتر المغتر، وقال: إنما يحملني علىٰ المعاصي حسن الرجاء، وطمعي في عفوه، لا ضعف عظمته في قلبي، وهذا من مغالطة النفس، فإن عظمة الله تعالىٰ وجلاله في قلب العبد تقتضي تعظيم حرماته، وتعظيم حرماته يحول بينه وبين الذنوب»[1].

والمعاصي تتفاوت في منافاتها للتعظيم، منها ما ينافي أصل تعظيم الله، ومنها ما ينافي كماله، وبعض أجناس الذنوب يظهر فيها أكثر من غيرها، مثل: الشرك، سب الله ودينه والاستهزاء بآياته، ذنوب الخلوات:

١ -**الشرك**.

وهو أعظم الذنوب منافاة لتعظيم الله ﷻ، وهو الذي قال فيه نوح ; لقومه: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا [سورة نوح]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾[سورة الزمر].

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾﴾[سورة الحاقة]، فعظمة الله وجلاله تقتضي إفراده بأنواع العبادة والتألُّه دونَ من سواه.

وفي مقابل بيان وجوه عظمة الله تعالىٰ بين سبحانه حقارة من يُعبد من دونه في جنب كماله وقدرته فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾[سورة الأنعام]، أي يسوون مع الله تعالىٰ غيره ممن لم يخلق ولا يقدر أن يخلق.

فالله تعالىٰ أعظم من أن يشرك معه غيره، قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾[سورة الحج]، قال ابن القيم رحمه الله تعليقًا علىٰ هذه الآية: «فما قدر مَن

(١) الداء والدواء، دار عالم الفوائد، تحقيق محمد أجمل الإصلاحي (ص: ١٧٠)

هذا شأنُه وعظمتُه حقَّ قدره من أشرك معه في عبادته من ليس له شيء من ذلك البتة، بل هو أعجز شيء وأضعفه، فما قدر القويِّ العزيز حق قدره من أشرك معه الضعيف الذليل»[1].

٢-سب الله ودينه والاستهزاء بآياته.

وهذا من أقبح الكفر، وهو أيضًا ينافي تعظيم لله جل جلاله أعظم المنافاة، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾[سورة التوبة]، قال الشيخ السعدي: «فإن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر مخرج عن الدين، لأن أصل الدين مبني علىٰ تعظيم الله وتعظيم دينه ورسله، والاستهزاءُ بشيء من ذلك منافٍ لهذا الأصل ومناقضٌ له أشدَّ المناقضة»[2].

وقد جاء هؤلاء المستهزئون إلىٰ رسول الله ﷺ يعتذرون منه فلم يقبل منهم تعظيما لله تعالىٰ، قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يصف حال أحدهم لما جاء يعتذر من رسول الله ﷺ: فأنا رأيته متعلقا بحَقَب[3] ناقة رسول الله ﷺ، تنكبه الحجارة، وهو يقول: يا رسول الله! إنما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله ﷺ يقول: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾[4].

ولا شك أن من شاهد هذا الموقف سيستعظم جدا الاستهزاء بالله تعالىٰ وآياته، وهكذا ينبغي أن يكون مُعلم الخير، وقد اقتفىٰ قضاةُ المسلمين وفقهاؤهم أثر رسول الله ﷺ[5]، فشدَّدوا في أمر الاستهزاء بالله تعالىٰ وإساءة الأدب معه سبحانه[6]، وهو بابٌ عظيم من أبواب الدَّعوة إلىٰ تعظيم الله تعالىٰ وتوقيره وإجلاله، وسأشير إلىٰ قصَّة واحدة وإلىٰ أثرها

---

(١) الداء والدواء، مرجع سابق (ص: ٣٢١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، دار ابن الجوزي، تحقيق سعد الصميل (١/ ٦٦٥).

(٣) الحقَبُ بالتحريك: حبل يشد به الرجل إلىٰ بطن البعير مما يلي ثيله كي لا يجتذبه التصدير. الصَّحاح للجوهري (١/ ١١٤).

(٤) أخرجه ابن جرير (١١/ ٥٤٣)، بإسناد صحيح.

(٥) أحكام قضاة المسلمين في هذا كثيرة، ولو جُمعت ورتبت ترتيبا لائقا لكان ذلك بابا حسنا من أبواب الدعوة إلىٰ تعظيم الله تعالىٰ، حيث يجمع بين معرفة أحكام القضاة، والاقتداء بهم في تعظيم جناب الربِّ سبحانه.

(٦) مع التنبيه علىٰ أنه تشديد مضبوط بالعلم مقيد بالشرع غير منفلت، حتىٰ لا يؤول الأمر إلىٰ الغلو الذي لا تحمد عاقبته.

في التربية علىٰ التعظيم، وهي ما حكاه حارث بن أسد الخشني في سبب عزل القاضي محمد بن زياد اللخمي، وهي أن رجلًا يعرف بـ«ابن أخي عجَب» نطق بكلمة متعبِّثًا في يوم غيثٍ، فرُفع أمره إلىٰ الأمير عبد الرحمن بن الحكم فأمر بإحضار القاضي وفقهاء البلد للنظر في أمره، فحضر عبد الملك بن حبيب وجمعٌ من أهل العلم، ورأىٰ عبد الملك أن الرجل استحق القتل، ورأىٰ غيره أنه يُعزَّر فقط، وكتبوا فتاويهم بذلك فلمَّا نظر فيها الأمير مال إلىٰ رأي عبد الملك، فأمر بإنفاذه، وعزل القاضي، ووبخ من وافقه من المفتين، وخرج عبد الملك بن حبيب وهو يقول: «سُبَّ ربٌّ عبدناه، إن لم ننتصر له إنَّا لعبيد سوء»[1].

فهذه القصة وأشباهها فيها تربية عملية علىٰ تعظيم الله جل جلاله، والحزم فيما يتعلق بسوء الأدب معه، فاهتمام الأمراء والقضاة والفقهاء بتعظيم هذا الأمر في نفوس الناس حاجزٌ منيع دون اختراق حرمته وهتك ستره.

٣-ذنوب الخلوات.

الذنوب كلها أثر عن ضعف تعظيم الله في القلب، لكنها متفاوتة في ذلك، بحسب ما تُشعر به من الاستهانة بنظر الله تعالىٰ، وهذا هو المعنىٰ الذي من أجله ذهب بعض العلماء إلىٰ أن الذنوب كلها كبائر، وليس فيها صغائر، فإنهم قالوا: الذنوب كلها بالنسبة إلىٰ الجراءة علىٰ الله ومعصيته ومخالفة أمره كبائر[2]، ولعلهم لم يقصدوا نفي الصغائر حقيقة بل قصدوا أن لا يستخف الناس بالذنوب بسبب تسميتها صغائر، وقد تنبه إلىٰ هذا أحد كبار التابعين وهو بلال بن سعد رحمه الله، فقال: «لا تنظر إلىٰ صغر المعصية، ولكن انظُر مَن عصيت»[3].

فإذا وقع العبد في هذا المحذور واستهان بنظر الله إليه عظُم أمر ذنوبه بقدر ما نقص من تعظيم الله في قلبه، وهذه هي الخاصية التي تميزت بها ذنوب الخلوة عن غيرها، قال الله تعالىٰ ذامًّا لمن وقع في هذا الفعل: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾[سورة النساء]، قال حذيفة رضي الله عنه في هذه الآية: «من صلىٰ صلاة عند الناس لا يصلي مثلها إذا خلا، ولا يستحيي أن يكون

---

(١) قضاة قرطبة، للحارث بن أسد الخشني، مكتبة الخانجي، تحقيق عزت العطار، (ص: ٩٠-٩١)، وأورد الحكاية أيضا القاضي عياض في كتاب الشفا (٢/ ٢٩٩) في تقرير حكم من تكلم من سقط القول وسخف اللفظ بما يقتضي الاستخفاف بعظمة ربه وجلالة مولاه.

(٢) راجع: الداء والدواء لابن القيم، مرجع سابق، (ص: ٢٩٣).

(٣) رواه ابن المبارك في: الزهد، رقم (٧١).

الناس أعظم عنده من الله، فهي استهانةٌ استهان بها ربَّه»[1].

(١) موسوعة التفسير المأثور (٧/ ٦٤-٦٥).

نتائج البحث

أهم النتائج التي يمكن تدوينها من خلال البحث هي:

١- تعظيم الله تعالىٰ مقصدٌ من أعظم مقاصد القرآن، والدعوة إليه مبثوثة في مضامين عدد كثير من آيات الكتاب المبين، وبأساليب مختلفة، وعليه فإن علىٰ الداعي أن يعرف وجوه العظمة ويحرص علىٰ بيانها للمدعوين وتقريبها إليهم، فهو يدعو إلىٰ جملة مترابطة من المعارف والسلوكيات التي تؤثر في النفوس تعظيم الله تعالىٰ.

٢- راعىٰ القرآن في الدعوة إلىٰ تحقيق مقصد التعظيم أحوال النفس البشرية فيما تتأثر به وفي دفع موانع التأثير، فلهذا تنوعت الدلالة علىٰ عظمت الله بين آيات متلوة وآيات مرئية، ورُوعي في الآيات المرئية ما قرُب من الناس وكثرت ملابستهم له وكانت دلالته ظاهرة جليَّة، وطُعِّم تأثيرُها بالمكاثرة والتكرار.

٣- من أهم مظاهر تعظيم الله ﷻ الدعوة إلىٰ توحيده سبحانه.

٤- من أهم المقاصد التي شُرعت من أجلها الشعائر الدينية الظاهرة إظهارُ تعظيم الله تعالىٰ وغرسُه في النفوس.

٥- من أساليب القرآن في الدعوة إلىٰ تعظيم الله بيان ما في الشعائر الدينية من مقاصد التعظيم والحث علىٰ تكمليها وتحقيقها.

٦- من أقوىٰ الأدلة وأظهرها علىٰ عظمة الخالق سبحانه «دليل العناية»، فالتركيز عليه في تعريف الناس بالله وتثبيت الإيمان والتعظيم في نفوسهم مسلك قرآني بديع.

٧- من منهج الرسول ﷺ في الدعوة إلىٰ تعظيم الله تعالىٰ العناية بآيات الصفات وشرحها للناس.

٨- من المنهج القرآني والنبوي في الدعوة إلىٰ تعظيم الله تعالىٰ استغلال تجدد الآيات في التذكير.

٩- أحكام قضاة المسلمين وفتاوي فقهائهم التي فيها تعظيم جناب الله ﷻ والاهتمام بالأدب معه، فيها جانب تربوي ودعوي مهم يرتكز علىٰ تحقيق القدوة وإعطاء النموذج التطبيقي فيه.

١٠-من أكثر علماء الإسلام اهتماما بموضوع التعظيم الإمام ابن قيم الجوزية، فقلَّ كتابٌ من كتبه إلا وتعرض لهذا الموضوع من بعض الجوانب، ولذلك فإنه يصلح لأن تقوم عليه دراسة تُعنىٰ بتتبع أصوله وجزئياته في معالجات ابن القيم.

هذا، والله أعلم، وصلىٰ الله علىٰ نبيِّنا محمد وعلىٰ آله وأصحابه وسلّم وشرّف وعظّم.

تخطيط البحث

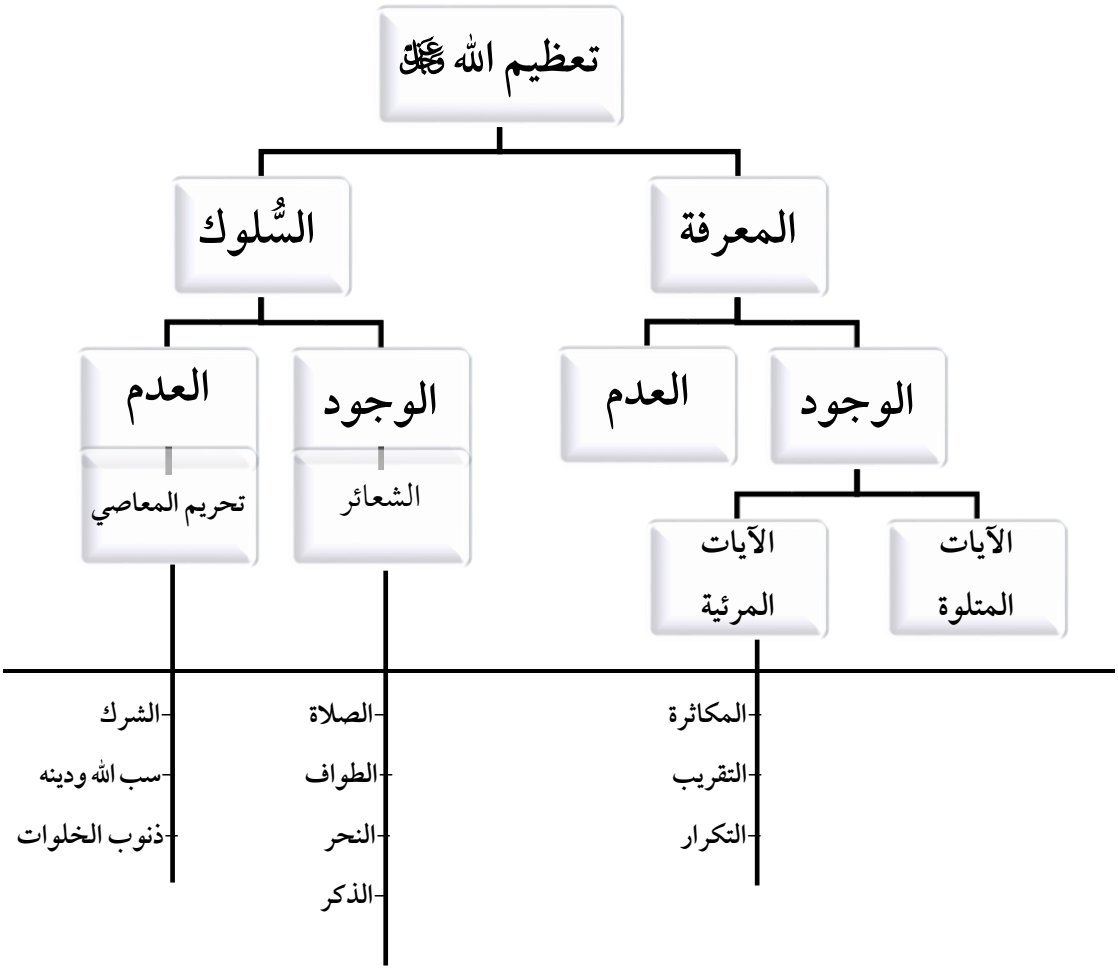
تعظيم الله ﷻ
المعرفة
السُّلوك
الوجود
العدم
الآيات المتلوة
الآيات المرئية
العدم
الوجود
الشعائر
تحريم المعاصي
المكاثرة
التقريب
التكرار
الصلاة
الطواف
النحر
الذكر
الشرك
سب الله ودينه
ذنوب الخلوات

مسرد المراجع

١- **الأحاديث المختارة**: لضياء الدين المقدسي، دراسة وتحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع-بيروت، الطبعة الرابعة: ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

٢- **الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار ذلك كله بالإيجاز والاختصار**: لابن عبد البر القرطبي، تحقيق عبد المعطي أمين قلعجي، دار قتيبة للطباعة والنشر، الطبعة الأولىٰ: ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

٣- **أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري**، لحَمْد بن محمد الخطابي، تحقيق ودراسة محمد بن سعد بن عبد الرحمن آل سعود، جامعة أم القرىٰ، الطبعة الأولىٰ: ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨.

٤- **بدائع الفوائد**: لابن قيم الجوزية، تحقيق علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد، الطبعة الثانية: ١٤٢٧.

٥- **تاريخ مدينة دمشق**: لأبي القاسم ابن عساكر، دراسة وتحقيق محب الدين عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر- بيروت: ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٦- **تجديد المنهج في تقويم التراث**: طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية: (دون تاريخ).

٧- **التفسير البسيط**: لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد الواحدي، مجموعة رسائل جامعية أشرف علىٰ إخراجه: عبد العزيز بن سطام آل سعود، وتركي بن سهو العتيبي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية: ١٤٣٠.

٨- **تفسير الطبري: جامع البيان عن تأويل القرآن**: لمحمد بن جرير الطبري، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار عالم الكتب، الطبعة الأولىٰ: ١٢٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٩- **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**: لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، اعتنىٰ به سعد بن فواز الصميل، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولىٰ: ١٤٢٢.

١٠- **الجامع الصحيح**: لمحمد بن إسماعيل البخاري، تصحيح وتحقيق محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية: سنة ١٤٠٠.

١١- **الجانب الديني للفلسفة-نقد لأسس السلوك والإيمان**: جوزايا رويس، ترجمة أحمد الأنصاري، مراجعة حسن حنفي، المركز القومي للترجمة، الطبعة الثانية: ٢٠٠٩.

١٢- **الداء والدواء**: لابن قيم الجوزية، تحقيق محمد أجمل الإصلاحي، دار عالم الفوائد، الطبعة الأولىٰ: ١٤٢٩.

١٣- **الزهد**: لعبد الله بن المبارك، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية، (دون تاريخ).

١٤- **سؤال العمل-بحث عن الأصول العملية في الفكر والعلم**: طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولىٰ: ٢٠١٢.

١٥- **سنن أبي داود**، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل قره بللي، دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولىٰ: ١٤٣٣ه/ ٢٠١٢م.

١٦- **السنن المعروف بالسنن الكبرىٰ**: لأحمد بن شعيب النسائي، تحقيق ودراسة مركز البحوث وتقنية المعلومات، دار التأصيل- القاهرة، طبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، الطبعة الأولىٰ: ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.

١٧- **شرح العقيدة الطحاوية**: لعلي بن محمد ابن أبي العز الحنفي، تحقيق عبد الله التركي وشعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة التاسعة: ١٤١٧ه/ ١٩٩٦م.

١٨- **الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ**: لعياض بن موسىٰ اليحصبي، دار الكتب العلمية- بيروت: (دون تاريخ).

١٩- **الصحاح تاج العربية وصحاح اللغة**: لإسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطا، دار العلم للملايين، الطلعة الرابعة: ١٩٩٠.

٢٠- **صحيح مسلم**، تحقيق نظر محمد الفاريابي، دار طيبة، الطبعة الثانية: ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

٢١- **قضاة قرطبة**: للحارث بن أسد الخشني، تحقيق السيد عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية: ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

٢٢- **مجموع الفتاوىٰ**: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، جمع عبد الرحمن بن قاسم، طبعة مجمع الملك فهد للمصاحف المدينة النبوية: ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

٢٣-٢٣- **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**: لابن قيم الجوزية، تحقيق

محمد حامد الفقي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٢٤- **المعجم الكبير**: لسليمان بن أيوب الطبراني، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار ابن تيمية- القاهرة، الطبعة الثانية: (دون تاريخ).

٢٥- **منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية**: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولىٰ: ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٢٦- **منهج القرآن في الدعوة إلىٰ الإيمان** -رسالة ماجستير علىٰ الآلة-: علي بن ناصر فقيهي.

٢٧- **موسوعة التفسير المأثور**: إعداد مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي بجدة، دار ابن حزم، الطبعة الأولىٰ: ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٧م.

٢٨- **الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب**: لابن قيم الجوزية، تحقيق عبد الرحمن قائد، دار عالم الفوائد، الطبعة الثانية: ١٤٢٧.